

رقم الدرس ٢

السبت ٨-١١-١٤٤٧ هـ

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله -

الملقاة بمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن محمد المختار بن محمد بن مزيد الجكني الشنقيطي

المدرس بالحرمين الشريفين

وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ومفوض الإفتاء بمنطقة المدينة المنورة

حفظه الله تعالى ونفع بعلمه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين

ملاحظة: هذه الدروس لم تُراجع من فضيلة الشيخ - حفظه الله -.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله تعالى-: {وقول الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}}

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الايمان الاكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين وخيرة الله من الخلق أجمعين وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستن بسنته إلى يوم الدين، أمّا بعد:

فقد ذكر الإمام شيخ الإسلام -رحمه الله- هذه الآية الكريمة في آخر سورة الذاريات، وبينا أن هذه الآية الكريمة قصد المصنف -رحمه الله- من إيرادها أن يقرر مسألة مهمة، وهي تتعلق بمعنى التوحيد، فهذه الآية الكريمة اختلف العلماء -رحمه الله- في تفسيرها على أقوال، ومما رجحه بعض الأئمة كالإمام ابن جرير الطبري أن قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} أن المراد بذلك أنهم ما خلقتهم إلا ليعبدوه ويتذللوا له سبحانه.

وهذا القول هو قول حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-، وهو يتفق مع المعنى الذي يريده المصنف أو قصده المصنف من إيراد هذه الآية الكريمة.

وهناك قول بأن معنى: {إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} إلا ليؤخّدون، وقيل: إلا ليعرفون، وقيل: إلا ليأتمروا بما أمر الله، وينتهوا عما نهى الله عنه، فيؤمّرون ويُنهّون، وهذا هو أصل الدين، أنه قائم على الأمر والنهي، لكن المعنى الأول هو الذي رجّحه عدد من الأئمة والمفسرين -رحمه الله عليهم-.

والإمام المصنف -رحمه الله- راعى في هذه الآية الكريمة وفي تقديمها في أول الباب: أن الله تعالى أشار إلى الحكمة من خلق الخلق، وهي أنه خلقتهم سبحانه من أجل عبادته، وإذا كان هذا هو المعنى، فإنه حينئذ تكون الآية دالة على عظم أمر التوحيد، وعظم شأن التوحيد، أن الله خلق الخلق من أجله، من أجل أن يؤخّدوه، وبالعبادة يفردوه، فهذا هو المقصود الأعظم من خلق الخلق.

وقوله -سبحانه وتعالى-: {لِيَعْبُدُونِ} العبادة: مأخوذة من قول العرب: "طريق معبد": إذا كان مذللاً وسهلاً، فالعبادة أصلها: التذلل والخضوع، وهذا معناها في اللغة العربية.

ولما كان العبد إذا قام بحق الله -عزَّ وجلَّ- ذلَّ له سبحانه، وحُقَّ أن يذلَّ العبدُ لربه وسيده ومولاه.

والعبادة في اصطلاح الشرع: عُرِّفت بتعاريف متعددة، وأجمعها قول شيخ الإسلام -رحمته الله- وغيره أنها (اسم جامع لكل ما يحبُّه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة).

فأصلاً العبادة لا تكون عبادةً إلا إذا قُصِدَ بها وجهُ الله، ولذلك قال تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ}، فالديانة والعبودية الحقَّة لا تكون إلا بالإخلاص والتوحيد، ومن عمل عملاً أشرك فيه مع الله غيره تركه الله وشركه، فالله أغنى الأغنياء عن الشرك.

ولذلك ينبغي للمسلم والموفق إذا أراد أن يعبد الله أن يحمل همَّ الإخلاص، وأنه لا يريد إلا وجه الله، وهذا هو مقام الصِّدق الذي ينفَعُك بين يدي الله: {أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَخُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ}، {خُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ}: هل تريد وجه الله، أو تريد ما سواه؟ فإذا أرادت وجه الله فقد صدقت، وذلك اليوم -كما قال أصدق القائلين-: {هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ}.

فهذه الآية أصل في التوحيد.

ويلاحظ: أن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- قال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، معناه أنَّ الحكمة من خلق الخلق أن يُوحَّد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وإذا كان الأمر كذلك، فقد عرَّف المصنِّف -رحمته الله- بإيراد هذه الآية في أول كتاب التوحيد، عرَّف بأمرٍ عظيم، وأشار إلى أمرٍ جليلٍ خطيرٍ جسيم، وهو العبودية لله الخالصة، وإذا كان الأمر كذلك، فإنَّ مناسبة ذكر الآية في أول الكتاب وأول هذا الباب: أنها تُعرِّف بالتوحيد، فإذا كان الخلق ما خُلِقوا إلا من أجله، والخلق ما أوجدتهم الله إلا من أجله، وأنَّ مراد الله من الخلق هو عبادته وتوحيده وإفراده بالعبادة -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، عندها يعلم المؤمنُ الموفق أنَّ أمر التوحيد هو الأمر، وأنَّ شأنه هو الشأن.

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}: هذا الأسلوب في لغة العرب هو أسلوبُ الحصر والقصر، كأنهم ما خُلِقوا لشيءٍ إلا لهذا الشيء، والقصرُ عند العلماء يقتضي إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فأثبت أنَّ الخلق للعبادة، وكأنهم لم يُخْلَقُوا لشيءٍ غير عبادة الله -عزَّ وجلَّ-، وليس المراد أنَّ الإنسانَ يترك طلب العيش ورزقه، لا، إنما المراد التنبيه على عظم هذا الحق الذي لم يأذن الله بصرفه لأي أحد كائناً من كان، لا بصرفه كله، ولا بصرف جزءٍ منه لملكٍ مقربٍ، أو نبيٍّ مرسلٍ، أو وليٍّ، أو

عبد صالح، أو حجر، أو شجر، أو قبر، أبداً، لم يأذن الله بصرف أي شيء من هذا الحق لغيره سبحانه.

فإذاً لما يقرأ المؤمن هذه الآية يستفيد هذا المعنى، والمصنف -رحمه الله- أورد هذه الآية ليشير أن مراد الله من الخلق هو التوحيد، وهذا -كما ذكرنا- يدل على معنى التوحيد أنه المقصود الأعظم من خلق الخلق، ولذلك هو الغاية العظمى من إيجاد الخليقة.

فذكر المصنف -رحمه الله- هذه الآية الكريمة واستفتح بها كتابه.

ومن الفوائد: أنه ينبغي للمسلم في كل شأنه خاصة في حياته العملية، أن ينظر إلى هذه الآية الكريمة؛ لأنه في الأصل ما خلق إلا من أجل عبادة الله، ما الذي حقق منها؟ وهل حينما يمسي ويصبح هل هو راضٍ عن مقامه في عبادة الله وعبوديته؟ قال سفيان -رحمه الله-: (ما وجدت شيئاً أشدَّ عليَّ من نيي؛ إنها تتقلب علي)، الإخلاص والتوحيد أمره عظيم، ولذلك هذه الآية توجه القلوب إلى الله، وتوجه القلوب إلى الله، وتوجهها أن تسعى حثيثاً إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وأن يغار المسلم فلا يأذن من نفسه ولا من غيره أن يُصرف شيء من حق الله إلى غير الله.

[وقوله: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} الآية].

الشرح:

هذه الآية الكريمة من سورة النحل تدل دلالة واضحة على أهمية التوحيد.

هناك قال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}، وهنا بين أن هذا الذي خلقهم من أجله بعث رسله، وأنزل كتبه، {وَلَقَدْ}: بأسلوب التحقيق الذي لا شك معه ولا مرية، اللام وقد، (لقد)، {وَلَقَدْ بَعَثْنَا}: البعث: هو التحريك والإثارة، يقال: "بعث الصيد": إذا استثاره وحركه، و"بعث الإبل": إذا استثارها وحركها وأرسلها، لكن في قوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا} فيه دلالة على إثبات الرسالات من الله، ولذلك من عقيدة المؤمن الإيمان بالرسال الذين بعثهم الله، {فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا}: ومن رحمته سبحانه: أنه إذا أرسل رسولاً، ف وقعت فترة من الزمان ينسى الناس فيها ما بُعثت به الرسل، لطف الله بخلقه فأرسل إليهم رسلاً، فالرسل تلو الرسل تذكّر بهذا الحق العظيم، أن الله بعث فيما مضى رسله من أجل التوحيد.

والرسول: هو السِّفِيرُ، والرسالة: هي السِّفَارَةُ، والرسول: من أُوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه، ولذلك قال الله في كتابه: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ}، فالرسول: من أُوحي إليه بشرع، وأمر بتبليغه.

فبيّن الله سبحانه أنه أرسل الرسل من أجل التوحيد، فإذا كان في الآية الأولى: خلق الخلق من أجل التوحيد، ففي هذه الآية: أنه من أجل التوحيد أرسل الرسل، وبعث الرسل، وهذا يدلُّ دلالةً عظيمةً على عظم شأن التوحيد، أنه من أجله أنزلت الكتب، ومن أجله أرسلت الرسل.

{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}، {أَعْبُدُوا اللَّهَ}: إثبات، {وَاجْتَنِبُوا}: نفْي، وشهادة التوحيد قائمة على الأمرين: الإثبات، إثبات الوجدانية لله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- كما قدّمنا في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، ونفيها عن غيره، ولذلك وقع الخلل أن البعض يثبت ولا ينفي، أو يثبت ويشرك مع الله غيره، ومن هنا، التوحيد يقوم على هذين الأصلين، وهما تضمّنتهما شهادة التوحيد (لا إله إلا الله)، (لا إله: نفْي، و(إلا الله): إثبات، ولذلك يُقال لسورتي الكافرون وسورة الإخلاص (سورتي التوحيد، وسورتي الإخلاص)، وكان يقرن بينهما -بأبي وأمي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، فيصلي في الركعة الأولى بـ {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}، وفي الثانية بالإخلاص.

(لا إله إلا الله): الإثبات والنفي.

{بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ}: هذا الإثبات، {وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}: هذا النفي، ولذلك أول أمر في القرآن بإثبات التوحيد: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ}، وأول نهي في كتاب الله: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}، وهذا النفي، فإذا هما أصل التوحيد.

فمن دقة الإمام -رَحِمَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-: أنه جاء بهذه الآية الكريمة التي بيّنت أصول التوحيد الذي هو النفي والإثبات، ولذلك تجد الخلل عند العوام وعند الجهلة أنهم يسمعون من يستغيث بالقبور، ويسأل أهلها ما لا يسأل إلا من الله: (يا فلانُ اشفِنا، يا فلانُ افعل بنا)، مما لا يُطلب إلا من الله، فإذا قلت له: إنَّ هذا هو الشِّركُ، قال لك: (يا أخي، هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا الله، هؤلاء من أهل الإسلام والتوحيد)، يظنُّ أن الأمر فقط قضية الإقرار دون النفي نفْي الشريك عن الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فيصرف ما لله لغير الله.

ولذلك أشار المصنّف -رحمه الله- في هذه الآية الكريمة أنّ التوحيد هو رسالة الرسل، فعرف بالتوحيد في أول كتابه، وأنه رسالة الله التي بعث بها رسله، وأنزل من أجلها كتبه، فكما أنّ التوحيد من أجله خلق الخلق، كذلك من أجله بُعثت الرسل، في كلتا الحالتين: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، {أَلَّا تَعْبُدُوا}: نفْي، {إِلَّا إِيَّاهُ}: إثبات، فيهما أصل التوحيد: النفي والإثبات. قال -سبحانه وتعالى-: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} يدل على عظم شأن التوحيد أنّ الله أرسل من أجله الرسل.

[وقوله: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} الآية].

الشرح:

في كلتا الآيتين الأوليين إشارة إلى توحيد الربوبية والألوهية، وفيهما إشارة -كما ذكرنا- إلى أنّ التوحيد قائم على النفي والإثبات، وهما أصل التوحيد. في هذه الآية يقول الله -جلّ جلاله- من سورة الإسراء: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، أولاً: المصنّف -رحمه الله- اقتصر من الآية على موضع الشاهد. وقضى في لغة العرب: قضى تستعمل بمعانٍ، يقال: "قضى من الأمر": إذا فرغ منه، ومنه: قوله سبحانه: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ}، أي فرغتم من فعلها. وكقوله في آية النساء: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ} أي فرغتم من فعلها، وكذلك قوله في الحج: {فَإِذَا قُضِيَتُمْ مَنَاسِكُكُمْ} أي فرغتم من فعلها، كله بمعنى الفراغ من فعل الشيء. المعنى الثاني للقضاء: قضى بمعنى خلقه، ومنه: قوله سبحانه: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ} أي خلقهن وأوجدهن سبحانه على غير مثال سابق في يومين، فهنا قضى بمعنى خلق. ويُطلق القضاء بمعنى الحتم، كون الأمر صار محتماً لا محيد عنه ولا مفر منه، ومنه: قوله سبحانه: {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَهَمُهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَاتَهُ}، {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ}: يعني صار أمراً محتماً لازماً لا مفر منه ولا محيد عنه، ويُطلق في هذا المعنى أنه صار محتماً. والقضاء يطلق بمعنى الحكم والأمر والإلزام والوصية، ومنه: هذه الآية الكريمة: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، قضى هنا بمعنى أمر ووصى وحكم وأوجب وألزم، كله بمعنى واحد.

{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}: هذا هو موضع الشاهد.

وقوله: **{أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}** هو التوحيد: الإثبات والنفي، بين سبحانه أنه وصيته سبحانه من فوق سبع سماوات لخلقه أجمعين أنه أمر بالتوحيد وألزم به وفرضه ووصى به، فهو وصية الله إلى خلقه. **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}**: ذكر الله -عزَّ وجلَّ- هذه الآية: **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}**، وأتبع بآية ثانية، وهي: **{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}**، وهذا يدل على جمال ودقة ترتيب الإمام شيخ الإسلام -رحمه الله- لسرد الآيات والأحاديث.

من يتتبع كتاب التوحيد يجد أن الآيات رُتبت بطريقة بدعية دقيقة.

انظر الأول: في أمر الخلق كله لما خلُقوا: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}**، فلما خلُقوا بُعث لهم الرسل لتعلمهم التوحيد، فكان ما خلُقوا إلا من أجل التوحيد، وما بُعثت الرسل وما تركوا هملاً، وإن كان التوحيد هو الفطرة وما جُبل عليه الخلق، لكن جاءت الشياطين شياطين الإنس والجن فاجتالت الناس عن صراط الله.

لكن انظر أول شيء: الخلق، ثم بعث الرسل، ثم قال في هذه الآية الكريمة الثانية: **{وَلَقَدْ بَعْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا}**، فصارت رسالات الرسل، ثم جاء بآيتين، إذا كان بعث الرسل وأرسل الرسل بالتوحيد، بين أن الله -عزَّ وجلَّ- جمع في التوحيد بين أمرين: الأمر بإخلاص وإفراده بالعبادة، والنهي عن الشرك، فجاءت آية: **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}** في الأوامر، وقضى بمعنى أوجب كما قلنا، وآية: **{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}**، **{مَا حَرَّمَ}**: أي ما تحتنبوه وتتركوه، فصار أعظم ما يؤمر به هو التوحيد، وصار أعظم ما ينهى عنه هو الشرك بالله، فجمع المصنف بينهما، وترتيبه عجيب، وله دقة في إيراد الآيات وترتيبها وفيما دلت عليه من المعاني.

الآن الشرائع السماوية: فيها أوامر، ونواهٍ، والأوامر: تتحقق بها المصالح، والنواهي: تندري بها المفاسد، يأمر الله بما فيه صلاح العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وينهاهم عما فيه الشر في دينهم ودنياهم وآخرتهم، فهل نُقدِّم الأوامر، أو النواهي؟ نُقدِّم الأوامر، أمر الله بتوحيده، بإقام الصلاة، بإيتاء الزكاة، قال لما بعث معاذًا إلى اليمن أمره أن يأمرهم بتوحيد الله: **((فإنهم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم))**.

أنت لما تأتي إلى شخص لأول مرة يدخل في الإسلام، أول ما تقول له: (أقم الصلاة وأد الزكاة)، ولذلك لما جاء ضمام بن ثعلبة يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شرائع الإسلام، أمره بتوحيد الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج إلى بيت الله إن استطاع إليه سبيلاً، هذه أوامر، ما تأتي مباشرة تقول له: (لا تزن، لا تسرق، لا تشرب الخمر)، تبدأ بالأوامر.

فصار التوحيد أول ما يؤمر به، ولم يقتصر، فالصلاة أمر بها، لكن التوحيد جمع فيه بين الأمر والنهي، وهذا أبلغ ما يكون، فنهى عن ضده وهو الشرك، فصار أهم ما يؤمر به التوحيد، وأهم ما يُنهى عنه الشرك.

وأجمع العلماء والأئمة على أنه ليس هناك أمر فيه مصلحة أعظم من التوحيد، وأنه لكل مصلحة من مصالح الشرع التي أمر بها وسائل تفضي إليها، فتوحيد الله -سبحانه وتعالى- له وسائل تدل عليه وتؤدي إليه وتقرره وتثبت في القلوب، يقولون: فهذه الوسائل هي أفضل الوسائل عند الله؛ لأنها تنتهي إلى أفضل مقصود وأحبّه إلى الله -عز وجل-.

وفي المحرمات والمعاصي قالوا: ليس هناك أعظم من الشرك بالله، وفي الوسائل ليس هناك وسائل ينبغي اجتنابها وتقديم أمرها على جميع الوسائل أعظم من وسائل الشرك؛ لأن المحرمات لها وسائل، أمر بغض البصر: {وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ}، ينظر إلى جسمها، ثم ينظر إلى تفاصيل الجسم، ثم يغرى بالحرام، هذه خطوات الشيطان، وهي وسائل للوصول، لا تسافر امرأة بدون محرم، ((لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر))، كلها وسائل.

لكن إذا جاء في الشرع تقييم الوسائل، فليس هناك وسائل ينبغي قفلها والعناية بقطع أسبابها ووسائلها المفضية مثل وسائل الشرك، فهي عن الصلاة على القبور، فهي عن اتخاذ القبور مساجد، لماذا؟ لأن هذا وسيلة، فهي عن بناء القبور وتخصيصها ووضع الصور فيها؛ لأنها وسيلة، فالعناية بقطع وسائل الشر، أعظمها وسائل الشرك.

ولذلك عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قطع الشجرة التي بايع تحتها أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، الشجرة: الأصل أن فيها منفعة، ولكنه لما نُظر إلى المفسدة وما في ظن الناس فيها، اليوم صحابة يعلمون، غداً تابعون ليسوا كالصحابة وإن كانوا على فضل، لكن فيهم ما ليس في الصحابة، ثم أتباع التابعين، ثم، ولذلك تجده -رضي الله عنه- يهتم بقطع الوسائل المفضية إلى المحرم. الشاهد: أن أهل العلم أجمعوا على أن أعظم المقاصد التوحيد، وأعظم المفاسد الشرك.

فجاء -رَحْمَةُ اللهِ- بالآيتين: الأولى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، وجاء بالآية الثانية: {قُلْ تَعَالَوْا أَنُلِ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}.

فقدَّم آية الإسراء على آية الأنعام، مع أنَّ آية الأنعام في ترتيب المصحف والعرضة الأخيرة مقدَّمة على، ولذلك هذه المعاني نحن لا نقول: إنه يقصدها، قد تكون مقصودة نعم، وأهل العلم عندهم بصيرة ونور، وقد يشرح البعض كتاب التوحيد ولا يتعرَّض لهذه المعاني؛ لأنه ليس العناية بالترتيب وكذا، وهذا لا ينقص من شرح من شرح، إنما هي معانٍ يذكرها العلماء في غير هذا الموضع، وهي صالحة في هذا، تبرز أهمية هذا المؤلف وما فيه، وأنه غني به عناية.

وفعلًا لما ترى آية مقدَّمة تُؤخَّر، وهذا يعني لا شك أنه يدعو للتساؤل، ولكن لما تنظر تجد: الأولى: في الأوامر، والثانية في النواهي، وتجد الشريعة تُقدِّم الأوامر على النواهي، تدرك أنَّ هذا الإمام وُفِّق في هذا الترتيب.

لما ذكر الإثبات في قوله: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، هذا معنى ثانٍ، لك أن تقول: إنَّ المصنِّف -رَحْمَةُ اللهِ- عرَّفَ بالتوحيد من جهة الحقوق، الأول: انتهينا من ناحية الأمر والنهي، لكن في التوحيد صفة، وهي أنه حق، ولذلك قال: [كتاب التوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد]، الحقوق على قسمين: إمَّا أن تكون لله، وإمَّا أن تكون للخلق، فتجد آيات التنزيل مليئة بهذا، ذاكرةً لحقَّ الله، وحقَّ خلقه، وقد تأتي الآية جامعةً بالأمر بحقَّ الله، وحقَّ خلقه.

هنا حينما تنظر إلى قوله تعالى: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، تنظر فتجد أنَّ في الآية حقين:

الحق الأول: لله: {أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، والحق الثاني: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}.

فالأول للخالق، والثاني للمخلوق.

فإذا نظرت إلى حقَّ المخلوق وجدت أنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- ذكر أعظم حقٍّ في المخلوقين، فليس هناك مخلوق أعظم حقًّا عليك من الوالدين، هذا أمرٌ يقرُّه الشرع، ويقرُّه الطبع، أنه ليس في الخلق أحدٌ في الأصل وفي الفطرة والخلقة وإلا قد ينشأ الإنسان يتيم الأبوين، ويتولاه رجلٌ ويقوم عليه، نحن نتكلَّم على أصل الخلقة والفطرة، أنه إذا خلق الله المخلوق من والدين، فلن يجد أرحمَ به من والديه بعد الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولا أرف، ولا، ولا، حتى قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما أراد أن يبيِّن عظيمَ رحمة الله بخلقته، قال: ((أترون هذه طارحةً ولدها في النار؟ قالوا: لا، يا رسول الله، قال: لله

أرحمُ بخلقه من هذه بولدها))، فرحمته الله -عزَّ وجلَّ- التي أودعها في الوالدين كمخلوقين لا يمكن أن يفضل غيرهما عليهما.

طيب إذا كان الوالدان حقهما أعظم الحقوق، فقد قرَّر -رحمته الله- في الآية الأولى: أن التوحيد حق لله، وأن الله بيّن في كتابه أن حقه فوق الحقوق كلها، طيب الذي ذكره الله حق الوالدين، تقول: فإذا كان حق المخلوق أعظمه حق الوالدين، وقدّم الله حقه على حق الوالدين، فمن باب أولى غير الوالدين، فيستقيم أن تقول: إن الآية نبّهت على أن حق الله أعظم الحقوق، فلا يمكن أن يساوى به حق مخلوق، والخلل في التوحيد أن يُصرف حق الخالق إلى المخلوق، أو يساوى حق المخلوق بحق الخالق.

فهو ذكر آية: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، والآية تدل على أن حق الله مقدّم، وأن حق الله أعظم؛ لأنه بطريق الأولى، حتى لما أمر في بقية الآيات: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}، ومسألة الترتيب في الحقوق هذه دلّت عليها نصوص الكتاب والسنة، ولذلك تجد في الحقوق أول ما تبدأ بحقّين: حق الأصل والفرع، الأصل: الوالدان، والفرع: الولد، فهما أقرب الناس منك.

ثم تنتقل إلى أقرب الناس قرابةً بعد الوالد والولد، وهم (الإخوان والأخوات)؛ لأنهم شاركوك في الأصل في الوالدين.

ثم ترتفع قليلاً وتقول: (الأعمام والعمات، والأخوال والخالات)؛ لأن الأخ والأخت شاركوك في الأصل، في الأب والأم، فإذا أخ شقيق شاركك فيهما، أو أخ لأب أو أم شاركك في أحدهما.

فهذه الحقوق مرتبة، حتى لما قال: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} هذا الأصل، {وَبَنَاتُكُمْ}: هذا الفرع، {وَأَخَوَاتُكُمْ}: من اجتمع معك في أصلك، {وَعَمَّاتُكُمْ}: من اجتمع مع أصلك في أصله، {وَأَخَالَاتُكُمْ}، وهذا الشيء موجود في النصوص.

فلما ذكر الله الحقّ بدأ بحقه: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، فإذا نظرت إلى الآية أنها آية حقوق، كان إيرادها في هذا الموضع: أن التوحيد كما أنه من أجله خُلِقَ الخلق، ومن أجله أرسلت الرسل، هذا الحق الذي بُعثت به الرسل، وأوجد الخلق من أجله، مقدّم على سائر الحقوق.

إذاً هو ترتيبٌ ومعنى صحيحٌ، وتدُلُّ عليه: الآياتُ الكريمةُ، لكنَّ صياغةَ الإمام -رحمتهُ الله- بهذه الطريقة تدلُّ على أنه فهم الآياتِ، وأنه يُورِدُ الآياتَ لمعانٍ، وأنه دقيقٌ في ترتيبها، وأنه لم يسردّها هكذا.

ولذلك تجده يقول: **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}**، ما قال: **{إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ}**، ما دخل في هذا؛ لأنه لم يُورِدْ حقَّ الوالدين لذاته، طيب كان بالإمكان أن يقول: **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}**، لماذا ذكر الوالدين وهو بصدد تقرير التوحيد؟ كان بالإمكان بكل سهولة أن يقول: **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}**، لماذا ذكر حقَّ الوالدين، ثم حذف بقية الآية التي هي متعلّقة بحقَّ الوالدين، لو كان مقصوده حقَّ الوالدين؟ لكنه أراد أن يبيِّن أنَّ هذه الآية إذا نُظِرَ إليها في كتاب الله فهي من آيات الحقوق، وآيات الحقوق ذُكر فيها أعظم حقٍّ لمخلوق؛ لأنَّ الحقوق: **إِنَّمَا لِلخَالِقِ، وَإِنَّمَا لِلْمَخْلُوقِ، فَذُكِرَ حقُّ المخلوق، وقُدِّمَ حقُّ الله على حقِّ المخلوق، ومن هنا، نعلم أنَّ هذا التوحيد الذي خُلِقَ الخلق من أجله، وأُرْسِلَت الرسل من أجله هو حقُّ الله مقدّم على سائر الحقوق.**

ثم لما جاءت آية: **{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}**، جاءت بالأصلين معاً: **{أَلَّا تَعْبُدُوا}** هذا نفْيٌ، **{إِلَّا إِيَّاهُ}**: إثباتٌ، الأصلُ في التوحيد النفْيُ والإثباتُ، (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) التوحيد قائمٌ على الإثبات والنفْيِ، ولذلك جابر -رضي الله عنهما- في حجة الوداع لما سمع النبي -صلى الله عليه وسلّم- يقول: (لبيك اللهم لبيك)، قال: ((وأهل النبي -صلى الله عليه وسلّم- بالتوحيد))؛ لأنه قال: (لبيك اللهم لبيك): إثباتٌ، (لبيك لا شريك لك لبيك): كلُّ حقٍّ لله فلا يمكن أبداً للموحّد أن يشرك فيه معه غيره -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- فهذا أصلٌ في التوحيد.

فذكر -رحمتهُ الله- آيةَ الأنعام: **{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}**، هذه الآيةُ الكريمةُ بيّنَ الله فيها الأمورَ المنهيَّ عنها -وكما قلنا- المفسدَ والشُّرُورَ، وهي -أي هذه الأمور- منها ما يتعلّقُ بحَقِّه سبحانه، ومنها ما يتعلّقُ بحقِّ غيره من المخلوقين، فمنهى عن الشُّركِ في حقِّه، ومنهى عن أكل مال اليتيم، وتطيف الكيل، وبخس الميزان، كلُّ هذا من المنهيات، لكنه ابتدأ بأعظم ما يُنهى عنه.

ولذلك إذا قرأت التوحيد، أو أردت أن تفهم التوحيد، عليك أن تأخذ الحذرَ الشَّدِيدَ مما يخلُ به، وإذا أردت أن تعلّم الناس وتنصح الناس عليك أن تعني عنايةً فائقةً بكلِّ ما يضادُّ التوحيد ويناقضه، أو

يقلل منه، أو يؤثّر في كماله؛ لأنّ هذا هو هدي الكتاب والسنة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلّم- في النهي عن المفسد.

فجاءت آية الأنعام ناهية: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ}، في المنهيات الصّيفة تكون صريحة: (حرّم)، ومن الصيغ الصريحة: (اجتنب وذّر)، {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ}، {ذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}، هذه كلّها منهيات، في المفسد ليس هناك كما سبق أعظم من مفسدة الشرك.

فمن دقة الإمام -رحمه الله-: أنه ذكر لنا ما يدل على العناية بالإثبات، وذكر لنا ما يدل على العناية بالنفي والنهي عن الشرك، فالتوحيد قائم على إثبات حق الله، والنهي عن الشرك والبراءة من الشرك والسّلامة من الشرك، فالشرك مضاد للتوحيد، ناقض له، وهادم لأصله.

ولذلك الذي يريد أن يوحّد يعتني أوّل شيء بما يثبت التوحيد، وبكل ما يناقضه ويضاده، فاعتنى المصنّف -رحمه الله- في التعريف بالتوحيد أنه قائم على هذين الأصلين: الإثبات والنفي.

يقول -رحمه الله-: [وقوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}].

الشرح:

وقوله: {اعْبُدُوا اللَّهَ}: إثبات، {وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}: نهي، الأول: إثبات، وأمر بالتوحيد: {اعْبُدُوا اللَّهَ}، والثاني: نهي عن الشرك: {وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، هنا تمخّض الأمر.

طيب في آية: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، تعلم أنّ الأمر شيء آخر، مع أنّ المأمور به شيء واحد والمنهي عنه شيء واحد، لكن هذه الآية جاءت في سياق وفي معنى، وهذه الآية جاءت في سياق آخر ومعنى آخر، واقتضى الترتيب والمناسبة أن تقدّم الأولى على الثاني.

فإذا نظرت إلى أنّ: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} تقارنها بقوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، تجد أنها تضمّنت شيئاً واحداً: إثبات حق الله، ونفيه عن غيره سبحانه، لكن الأولى جاءت لإثبات حق، وبيان أنّ هذا الحق هو أعظم الحقوق كلّها، وأنّ الثانية جاءت لإثباته من حيث هو، والتعريف بالتوحيد أنه قائم على النفي والإثبات.

{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}: هذه الكلمة العظيمة التي لن تجد رسولاً ولا نبياً إلا قالها، نادى قومه: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}.

{اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}: فالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- مستحق أن يُعبد -جَلَّ جَلَالُهُ-، لا إله إلا هو، ومستحق أن يُفرد بهذه العبادة، فلا يُعبد معه غيره، فقام التوحيد على هذا الأصلين: الإثبات والنفي.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [{وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}] هذه آية النساء، وفيها ذكر الحقوق: الوالدين وذوي القربى والجار الجنب والصاحب.

انظر الوالدين أقرب قريب، ثم ذوي القربى، ولذلك يقولون: برّ الوالدين بعده صلة الرحم في المخلوقين، ما فيه أحد يُقدّم على الوالدين، يقول -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في الحديث الصحيح لما سُئل عن الإحسان والصدقة، بعد أن بيّن حق من له الحق في النفقة، قال: ((ثم أدناك، أدناك))، يعني أقرب إليك.

ثم جاء هذا الذنو والقرب حتى في المسكن: {وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ}، لن تجد كلاماً أجمل من كلام الله، ولن تجد كلاماً أتم من كلام الله، {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}.

فذكر المصنّف -رَحِمَهُ اللَّهُ- هذه الآية واقتطعها، فقال: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، ما ذكر بقيّة الحقوق، يكفي؛ لأنه إذا ذكر برّ الوالدين اجتزعه، وإلا كان ذكرها هنا، وهذا يدل على أنه -رَحِمَهُ اللَّهُ- يقصد من كل آية معنى، وأنت إذا نظرت إلى التوحيد وما دلّت عليه نصوص الكتاب، تأمل هذا العالم المصلح -رَحِمَهُ اللَّهُ- وهو ينظر في الآيات فترة ليست بالهيّنة، وهو يتأملها ويتدبرها ليخرج منها المسائل، لماذا يقولون: (إنه مصلح ومجدّد)، فتح الله عليه فتحاً عظيماً، والأمور التي قرّرها في توحيد الله كشفت كثيراً من دياجير الظلمات في الخلط في التوحيد ومسائل التوحيد، وأنقذ الله بها أمماً من الحيرة والشكوك، ومن أعظم شيء يُعصى به الله وهو الشُّرك.

[وقوله: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} الآيات].

الشرح:

وهكذا وصل إلى الموضع المراد به: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}. قال في الآية الأولى، قال: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، جمعت بين الأصلين، فهذا كله قرّر فيه التوحيد، وعظم أمره، وأنه من أجله خلق الله الخلق، وقرّر فيه -رحمه الله- أن التوحيد قائم على أصلين: هما الإثبات والنفي.

ثم بيّن -رحمه الله- بهذه الآية الكريمة أيضاً في قوله سبحانه: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}، أن الشرك أمره عظيم، قال: {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، آية الأنعام في النهي، ولذلك قال: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}، ما قال: (اعبدوا الله)، هنا في الشرك والنهي عن الشرك؛ لأنه أسبقها بقوله: {اعْبُدُوا اللَّهَ}، وهنا، تدرك كيف أحسن إيراد الآيات، ورثب بعضها على بعض، فأية الأنعام فيها النهي عن الشرك.

ثم انظر وتأمل -رحمك الله-، قلنا في قوله: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}، قدّم الله التوحيد على جميع الحقوق، وهنا قدّم الشرك على جميع المنهيات: {أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}، هذه الآيات المراد بها النهي عن الشرك، وجعلها عقيب قوله: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ}، هذا الإثبات، فجاء بالشرك، فبيّن أن العناية بحق الله في اجتناب الشرك والبعد عنه والعناية بالسّلامة منه، كما أن الأول مقدّم على جميع الحقوق، هنا مقدّم على جميع المنهيات.

ولذلك، أجمع العلماء -رحمهم الله- على أنه ليس هناك مفسدة أعظم من مفسدة الشرك، وأنه ليس هناك مفسدة مقدّمة على مفسدة الشرك، ولو تعارضت مفسدة الشرك مع غيرها قدّمت مفسدة الشرك على جميع المنهيات؛ لأنها أصل البلاء والشقاء والعناء: {إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}، أمر عظيم.

فهو -رحمه الله- يُعرِّفنا في هذا الباب ما هو التوحيد وأهميته، وكيف أنَّ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في هذه الآيات الكريمة يرشدُ إلى توحيد الألوهية، وعظم شأنه، وكما أنَّ التَّوْحِيدَ له أهمية في العناية بإثباته، كذلك الشِّرْكُ أن يُؤَلِّي العبد أهمية في السلامة منه والبعد عنه.

البعضُ، يقولُ: (يا أخي، أنت تتكلَّم عن الشِّرْك، شرك، شرك، شرك، يا أخي، الناسُ تشهدُ أن لا إله إلا الله)، القرآنُ في زمن الصحابة، صحيحٌ أنه للأمة كلّها، وهم مهتدون، ويخاطبُ الله نبيّه: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}، أمرٌ يُتَّقَى ويُفزعُ إلى الله في تركه واجتنابه.



جزاك الله خير الجزاء، وأسعدك ووالديك سعادة الأبرار، وأطال الله في عمرك على عملٍ صالحٍ يرضيه، وجعلك الله مباركاً أينما كنت.

السؤال الأول:

فضيلة الشيخ، هذا سائلٌ يقولُ: قدمتُ إلى المدينة من بلادي أريدُ طلبَ العلم في الجامعة، وأريدُ منكم نصيحة لي في طلب العلم، ما هي الأمور التي تنصحونني بها في بداية طلب العلم، حفظكم الله؟

الجواب:

باسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعدُ:

فطبت أخي وطاب ممشاك، وهنيئاً لك هذا الفضل الذي أعطاك الله وأولاك، هنيئاً لك وأنت تسافر فتترك أهلَكَ وأبناءَكَ ووالديكَ وولدَكَ وقربانَكَ والناسَ، إلى هذا البلد الطيب؛ من أجل أن تتعلَّم أمورَ دينك، وتتفقَّه وتهدي غيرَكَ بإذن الله -عَزَّ وَجَلَّ-، هذا مقامٌ عظيمٌ، ومنزلٌ جليلٌ كريمٌ، لا يُهدى ولا يُعطى إلا لمن أراد الله به خيراً.

فأوصيك أولاً: بتعظيم نعمة الله التي أنعم عليك، ومفتاح الخير في النعم شكرها، فتشكر الله حقَّ شكره، ما من أحدٍ يقدمُ أو يردُّ على بلدٍ يريدُ أن يطلب العلم، أو على موضعٍ يريدُ أن يطلب العلم، إلا وحقُّ عليه أن يبدأ أول ما يبدأ بحمد الله وشكره، هما أمران: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}.

فتبدأ بحمد الله وشكر الله والثناء على الله؛ حتى يبارك الله لك في هذه النعمة، وتذكر أن الله ندب أوليائه إلى السفر والانتقال للعلم: {فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}.

أنت تجدد مآثر الصحابة لما هاجروا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- هجرة الوفود وهجرة العلم، وتجدد مآثر السلف الصالح الذين تغربوا وسافروا وتركوا أوطانهم للعلم.

الأمر الثاني: إذا شكرت هذه النعمة أن تتذكر أنك ما تغربت عن آهلك وولدك ووالديك للعبث وإضاعة الوقت وسفاسف الأمور.

قَدْ هَيَّئُوكَ لِأَمْرِ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ فَارْبَابُ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَعَى مَعَ الْهَمَلِ

ما تغربت من أجل إضاعة الأوقات في الأمور والترهات والتي لا تليق بك، تغربت لله وفي الله من أجل ما يرضي الله، على نور من الله، فتحرص على ترتيب ساعات جلوسك في المدينة، تغار على الدقيقة قبل الساعة، والساعة قبل الساعتين، والساعات وقبل اليوم، واليوم قبل الأسبوع، وهكذا، كل يوم تسأل نفسك: ما الذي استفدت؟ وما الذي أخذت؟

الأمر الثالث: كيف تطلب العلم؟ تطلبه عند أهله، فتبحث عن ترضاه حجة لك بين يدي الله، العلم ليس أن تصغي لكل أحد، وأن تجمع كل ما هب ودب من غرائب المسائل والأقوال، وتقول: (تعلمت عند فلان وفلان) بكثرة المشايخ، العلم أول ما يبدأ بالعالم الرباني، من وفقه الله لأمر:

أولها: عالم يرضى حجة للعبد بينه وبين الله، قال الإمام الشافعي: (رضيت بمالك حجة بيني وبين الله)، تنصح الأمة محمد، ولأهلك وقومك وعشيرتك، أن تنقل لهم علماً صحيحاً، وقولاً صحيحاً من أناس هم حجة بين يدي الله -عز وجل-، ما تأخذ العلم من كل ما هب ودب، وتلقف المسائل والأحكام الشرعية، تُصفي ذهنك صفاء كاملاً، لا يدخل إلا العلم الذي عليه نور من الله -سبحانه وتعالى-، فإذا وجدت العالم الذي ترضاه حجة بينك وبين الله جلست بين يديه، واختار لك العلم الذي ينفعك، وشاورته في نوع العلوم التي تطلبها، وطريقة الطلب، ونظر: هل أنت أكثر حفظاً أو أكثر فهماً؟ فيختار لك ما يناسبك.

ثم تحرص على أنك تأتي وترتب وقتك، ولا يراك الله يوماً تخلفت عنه، أو تأخرت عن مجلسه، أو جئت إلى مجلسه ولم تقرأ ولم تحضر، تسمو إلى الكمالات، لا تنظر إلا لشيء واحد، وهو أن الله يسمعك ويراك، وأنك إن أتقنت العلم رضي الله عنك وأرضاك وأولاك وأعطاك وفتح عليك.

فاجتهد -رَحِمَكَ اللهُ- في الكمالات في العلم، وإياك وإضاعة الأوقات، وإياك والتساهل في أخذ العلم بأي طريقةٍ ووسيلةٍ.

ثم تحرصُ أخي على شوب العلم بالعبادة، فتحرصُ على قيام الليل، وتحرصُ على صيام النهار، وتحرصُ على أذكار الصباح المساء، ولا تعلمُ بسُنَّةٍ إلا وطَبَّقْتَهَا، لا يليقُ بك أن تخرجَ إلى الناس وأنت طالبُ علم تجهلُ السُّنَنَ أو تضيِّعُها أو تفرِّطُ فيها، فتصومُ الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كلِّ شهرٍ، لا تضيِّعُ ولا تفرِّطُ في السُّنَن، ليست بواجبةٍ، لكنها في حقِّ العلم أكْدُ.

وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله، وصلى الله وسلَّم على نبيِّنا محمدٍ.